# مالي ولسعيد بن جبير؟!

نحكي الآن حكاية عالم وطاغية! أو سيرة عالم وقف في وجه ظالم جبار.! لم يُرعده بطشه وجبروته أن يصمد أمامه ويواجه طغيانه.. إنه التابعي الجليل (سعيد بن جبير) الذي تعلم العلم وتلقاه على يد الصحابة الأجلاء، ورى عنهم وأخذ عن حبر الأمة بن عباس، وكان من تلامذته النابهين، كما سمع من أم المؤمنين عائشة ﷺ، وعدي بن حاتم، و أبي هريرة و أبي موسى الأشعري وغيرهم من الصحابة الكرام.. الذين تعلم منهم العزة والشموخ والإباء كما تعلم منهم العلم والإيمان واليقين.

كان سعيد بن جبير صوامًا قوامًا عابدًا قانتًا، يحب القرآن ويدمن قراءته ويختمه بين الحين والحين، وكان لا يفارقه ذكر الموت، ويقول: لو فارق ذكر الموت قلبي لخشيت أن يُفسد علي قلبي.. أما علمه فقد وصفه (خصيف) بقوله: كان أعلمهم بالقرآن مجاهد، وأعلمهم بالحج عطاء، وأعلمهم بالحلال والحرام طاووس، وأعلمهم بالطلاق سعيد بن المسيب، وأجمعهم لهذه العلوم سعيد بن جبير، ويقول فيه (ميمون بن مهران): لقد مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض رجل إلا ويحتاج إلى سعيد، وقال عنه الإمامُ أحمد بن حنبل: (لقد قتل سعيد بن جبير، وما على الأرض أحد، إلا ومحتاج إلى علمه.. وكان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه يقول: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟ يعني سعيد بن جبير.. وجاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن فريضة، فقال: ائت سعيد بن جبير، فإنه أعلم بالحساب مني، وهو يفرض منها ما أفرض، ودأَب سعيد على شدِّ رحاله إلى بيت الله الحرام كل عام مرتين، مرةً في رجب محرِمًا بعمره، وأخرى في ذي القعدة محرِمًا بحج، وقد

كان طلاب العلم والخير والبِرّ والنصح يتوافدون على الكوفة، لينهلوا من مناهله العذبة، ويغترفوا من هديه القويم، وعلمه الغذير.

هذا هو سعيد بن جبير وهذه هي مكانته الشاهقة ومقامه الكبير.. أما الطاغية، فإنه الحجاج بن يوسف وما أدراك ما الحجاج بن يوسف فهو الذي لم تعرف أمتنا العربية والإسلامية، في تاريخها القديم طاغية أسرف في سفك الدماء، وغالى في الظلم والجور، مثل ما عرفت من الحجاج بن يوسف، ذلك العتي الذي لم يكن يعرف غير السيف حكمًا، وقطع الرقاب عقابًا، ضد كل من عارضه أو خالفه، فكانت الدماء أهون شيء لديه، وكان الأمر بالقتل أجرى الأقوال على لسانه.. كان فظًا غليظًا سفاحًا قاسيًا.. قال فيه عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم، وقال فيه هشام بن حسان: أحصوا ما قتل الحجاج صبرًا فبلغ مائة وعشرين ألف قتيل، وقال الذهبي : (كان ظلوما جبارًا ناصبيًا سفاكًا للدماء ..نَسبُه ولا نحبه، بل نُبغضه في الله، فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان، وله حسنات مغمورة في بحر سيئاته)

وعن قتادة قال: قيل لسعيد بن جبير: خرجت على الحجاج؟ فقال: إني والله ما خرجت عليه حتى كفر.

وقال الأعمش: اختلفوا في الحجاج فسألوا مجاهدًا فقال: تسألون عن الشيخ الكافر.؟

وقال الشعبي: الحجاج مؤمن بالجبت والطاغوت كافر بالله العظيم.

وقال القاسم بن مخيمرة: كان الحجاج ينقض عرى الإسلام.

وعن عاصم بن أبي النجود قال: ما بقيت لله تعالى حرمة إلا وقد انتهكها الحجاج

وعن أبي حنيفة عن حماد قال: بشرت إبراهيم بموت الحجاج فسجد ور أيته يبكي من الفرح.!

ولك أن تتخيل حجم هذا الطغيان الذي يدفع عالمًا نجيبًا كإبراهيم النخعي للسجود والبكاء من الفرح؟! قال ابن كثير في البداية والنهاية: (كان ناصبيًا يبغض عليًا وشيعته في هوى آل مروان بني أمية، وكان جبارًا عنيدًا، مقدامًا على سفك الدماء بأدنى شبهة، وقد روي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر.!)

كل هذه الشهادات التي قدمها الأئمة وأدلى بها العلماء.. حاولت وصف ما كان عليه أشهر طغاة العرب الظالمين، الذين لم تعرف قلوبهم الرحمة، ولم تعرف أنفسهم شبعًا من إراقة الدماء البريئة الطاهرة.. وقد كانت لهذا الطاغية قصة مؤلمة، مع علم التابعين سعيد بن جبير، الذي كان ضحية لجوره وظلمه وطغيانه.. لكنه رغم تجبر الحجاج وعسفه وتهديده ووعيده وبطشه الأكيد.. لم يكن ليخضع أو يخنع، أو يزل وينكسر، أو يلاين ويهادن.. فقد كان صداحا بالحق، لا يخشى في الله لومة لائم.. فانطلق في تحديه غير هياب للموت الذي يزلف من عين السفاح ولسانه.. وكانت الملحمة، وكانت المواجهة، وكان حكم الطاغية الغادر بإعدام العالم الشهيد.. وقبل ذلك كله كان التحدي، وكانت العزة، وكان الإباء، وكان الرفض والسخط والثورة على ظلم الباغي وجوره.!

كان سبب العداء بين الحجاج و ابن جبير، أن الأخير من هؤلاء العلماء والفقهاء الذين أيدوا وساندوا عبد الرحمن بن الأشعث، أحد قواد الحجاج في خروجه و انقلابه عليه.. لقد أوشك أن ينتصر عبد الرحمن وتكتب له الغلبة، إلا أن النصر في النهاية كان حليفًا للسفاح العتي، ولم يكن أمام ابن الأشعث إلا أن يفر، وأعلن جيشه الاستسلام.. فنادى فيهم الحجاج: أن يشهد

الرجل منهم على نفسه بالكفر، ثم يُعلن التوبة ويبايع، وإلا قطعَ عنقه ..وما كان لابن جبير﵁ أن يبايع طاغية، أو أن يشهد على نفسه بالكفر، ففر من قبضته، وأخذ يتنقل من بلد إلى بلد، مدة عشر سنوات، حتى استقر به المقام في إحدى قرى مكة متخفيًا، ورغم مرور هذه السنوات الطوال، إلا أن الطاغية الجبار كان يمتلئ غيظًا منه، ويتمنى لو أمسك به، حتى يروي ظمأ غيظه، ويشفي منه غليله، وكانت عيونه لا تكل ولا تمل في البحث والتنقيب عنه في كل مكان.. حتى تولى على مكة خالد القسري، الذي استطاع القبض على العالم الفقيه، بعد أن مل الفرار، وقرر أن يبقى حتى يلقى ما قدره الله له.. و أفلح القسري في القبض عليه، وساقه مكبلاً للحجاج في مدينة واسط، وتلفت ابن جبير لأصحابه قائلاً لهم: ما أراني إلا مقتولاً على يد هذا الظالم، فلما صار عنده، نظر إليه في حقد، وقال: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير، فقال: بل شقي بن كسير، فقال سعيد: بل كانت أُمِّي أعلمَ باسمي منك، قال: ما تقول في محمد؟ قال: تعني محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، قال: نعم، قال: سيد ولد آدم، النبي المصطفى، خير من بقي من البشر، وخير من مضى، حمل الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح لله، ولكتابه، ولعامة المسلمين، وخاصتهم.

قال: فما تقول في أبي بكر؟ قال: هو الصديق خليفة رسول الله، ذهب حميدًا، وعاش سعيدًا، ومضى على منهاج النبي صلوات الله وسلامه عليه، لم يغيّر، ولم يبدل.. قال: فما تقول في عمر؟ قال: هو الفاروق الذي فرّق الله به بين الحق والباطل، وخيرة الله من خلقه، وخيرة رسوله، ولقد مضى على منهاج صاحبَيْه، فعاش حميداً، وقتل شهيداً.

قال: فما تقول في عثمان؟ قال: هو المجهِّزُ لجيش العسرة، الحافرُ لبئر رومة، المشتري لنفسه بيتا في الجنة، صهر رسول الله ﷺ على ابنتيه، ولقد زوَّجه النبي بوحي من السماء، وهو المقتول ظلمًا.

قال: فما تقول في عليّ؟ قال: ابن عم رسول الله، وأول من أسلم من الفتيان، وهو زوج فاطمة البتول، و أبو الحسن والحسين، سيدي شباب أهل الجنة.. قال: فأي خلفاء بني أمية أعجب لك؟ قال: أرضاهم لخالقهم، قال: فأيُّهم أرضى للخالق؟ قال: علمُ ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

قال: فما تقول فيَّ؟ قال: أنت أعلم بنفسك، قال: بل أريد علمك أنت، قال: إذًا يسوءك ولا يسرك، قال: لا بد من أن أسمع منك، قال: إني لأَعْلَمُ أنك مخالف لكتاب الله تعالى، تُقدِم على أمور تريد منها الهيبة، وهي تقحمك الهلَكَةَ، وتدفعك إلى النار دفعاً، قال: أمَا واللهِ لأقتلنك، قال: إذاً تفسد عليَّ دنياي، و أفسد عليك آخرتك، قال: اختر لنفسك أي قتلة شئت، قال: بل اخترها أنت لنفسك يا حجّاج، فو الله ما تقتلني قتلة، إلا وقتَلك اللهُ مثلها في الآخرة، قال: أتريد أن أعفوَ عنك، قال: إن كان العفو فمن الله تعالى، أمّا أنت فلا أريده منك، فاغتاظ الحجاج، وقال: السيف والنطع يا غلام، فتبَسَّم سعيد، فقال له الحجاج: وما تبسُّمك؟ قال: عجبت من جرأتك على الله، وحلم الله عليك، قال: اقتله يا غلام، فاستقبل القبلة، وقال:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1] قال: حرِّفوه عن القبلة، فقال:﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[2]

---

١ - الأنعام الآية: ٧٩

٢ - البقرة الآية: ١١٥

قال: كبُّوه على الأرض، فقال:﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[1] قال: اذبحوا عدو الله، فما رأيت رجلاً أَدْعَى منه لآيات القرآن الكريم، فرفع سعيد كفَّيه، وقال: اللهم لا تسلِّط الحجاجَ على أحد بعدي.

قال: فلم يمضِ على مصرع سعيد بن جبير غير خمسة عشر يوماً، حتى حمَّ الحجاج، واشتدت عليه وطأةُ المرض، فكان يغفو ساعة ويفيق أخرى، فإذا غفا غفوة، استيقظ مذعوراً، وهو يصيح: هذا سعيد بن جبير آخذ بخناقي، هذا سعيد بن جبير، يقول: فيمَ قتلتني؟ ثم يبكي، ويقول: مالي ولسعيد جبير؟ ردّوا عني سعيد بن جبير.

فلما قضى نحبه، وورِي في ترابه، رآهم بعضهم في الحلم، فقال له: ما فعل الله بك فيمن قتلتهم يا حجاج؟ قال: قتلني اللهُ بكل امرئ قتلة واحدة، وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة).[2]

---

١ - سورة طه الآية: ٥٥

٢ - سيرة التابعين – محمد راتب النابلسي